النصيريون في سوريا: من النشأة إلى السقوط
قراءة في التاريخ والعقيدة والجريمة السياسية

م. محمد صادق شيخ ديب | 26.05.2026

تنتهج هذه الورقة منهج التحليل السياسي النقدي المستند إلى المصادر التاريخية الموثّقة وتقارير منظمات حقوق الإنسان الدولية. وهي لا تدّعي الحياد المطلق إزاء جرائم موثّقة بالأدلة، إذ إن الحياد من الجريمة الموثّقة ليس فضيلة منهجية بل تقصير أخلاقي.

أولاً: النشأة والجذور التاريخية

المنشأ العقدي والتأسيس

النصيرية فرقة باطنية غلاة نسبت إلى محمد بن نصير النميري البصري (توفي نحو 270هـ/883م)، الذي ادّعى النبوة وأن الإمام الحسن العسكري أرسله رسولاً. اعتُبر ابن نصير من الغلاة الذين رفعوا علياً بن أبي طالب إلى مرتبة الألوهية، وهو ما جعله مرفوضاً من قبل الشيعة الاثني عشرية أنفسهم قبل غيرهم.

انتشرت النصيرية في جبال اللاذقية وجبل العلويين (جبل الأنصارية حالياً) في الشمال الغربي لسوريا، حيث وجدت في عزلة الجبال ملاذاً طبيعياً لحماية عقيدتها من الرقابة والمحاسبة. وقد ظل هؤلاء عبر قرون طويلة في حالة من الانكفاء والتقوقع، يمارسون طقوسهم في سرية تامة.

في عام 1920، وبعد أن بسط الفرنسيون سيطرتهم على سوريا، أصدروا قراراً رسمياً بتسمية النصيريين بـ "العلويين" نسبةً إلى الإمام علي بن أبي طالب، وذلك كجزء من سياستهم في التعامل مع الأقليات الدينية والطائفية في المنطقة، ولصرف النظر عن أصول تلك الطائفة.

وقد أنشأ الفرنسيون عام 1920 كذلك كياناً سياسياً مستقلاً عُرف بـ "دولة العلويين" أو "جبل العلويين" في المنطقة الساحلية (اللاذقية وما حولها)، وذلك ضمن سياسة "فرّق تسد" التي اتبعوها في سوريا بتقسيمها إلى كيانات طائفية متعددة.

الجغرافيا والتركيبة السكانية

تمركز النصيريون تاريخياً في:

- جبال اللاذقية وطرطوس: المعقل الرئيسي والحصن الأمني
- سهل الغاب: الامتداد الزراعي
- حمص وحماه: التواجد في المدن الداخلية
- دمشق: النخبة الحاكمة لاحقاً

شكّل النصيريون تاريخياً نحو 10% من السكان، ليحكموا لاحقاً دولة يشكل أهل السنة فيها ما يزيد على 80% من السكان.

قرون في الهامش

ظل النصيريون على مدى أكثر من ألف عام، من القرن التاسع الميلادي حتى مطلع القرن العشرين، في عزلة شبه تامة عن مراكز القرار، يتناوبون بين حكم الدويلات الإسلامية المتعاقبة: الحمدانيين والبويهيين والسلاجقة والأيوبيين والمماليك والعثمانيين. لم يكن وضعهم في أي حقبة منها وضع شريك في السلطة، بل وضع هامش محكوم يتقي بالتقية ويعيش على هوامش الجبال. هذه العزلة الطويلة هي التي جعلت الانتداب الفرنسي عام 1920 يبدو في أعينهم فرصةً تاريخية استثنائية للخروج من الهامش إلى المركز، وهو ما يُفسر سرعة وعمق تعاونهم مع المشروع الاستعماري.

ثانياً: المعتقدات والعقيدة النصيرية

الأسس العقدية الغيبية

تقوم العقيدة النصيرية على أركان غيبية باطنية تجعلها في خانة الغلو المرفوض عند جميع الفرق الإسلامية:

تأليه علي بن أبي طالب

يعتقد النصيريون أن علياً هو التجلي الأعلى للذات الإلهية، وليس مجرد إمام أو خليفة، وهو اعتقاد رفضه علي نفسه صريحاً وقاتل أصحابه من غلاة عبّاد المظاهر.

مبدأ المعنى والاسم والباب

يؤمنون بثالوث غنوصي مركّب: علي هو 'المعنى' (الله)، ومحمد هو 'الاسم'، وسلمان الفارسي هو 'الباب'. وهو مزيج من الأفلاطونية المحدثة والغنوصية الفارسية والإسماعيلية المتطرفة.

التناسخ والتقية

الإيمان بتناسخ الأرواح وتجسّدها في أشكال متعددة بعد الموت. وتُعدّ التقية ركناً مقدساً تتخطى التقية الشيعية الاعتيادية لتصل إلى إنكار الهوية الدينية بالكامل وانتحال شخصيات مختلفة حسب السياق السياسي.

يقول مثلهم الشهير: النصيري مع السني سني، ومع المسيحي مسيحي، ومع الشيعي علوي، ولا دين له مع الملحد.

الحكم الشرعي الإسلامي على النصيرية:

ولفهم كيف نظر المحيط الإسلامي تاريخياً إلى النصيرية

- ابن تيمية الحنبلي (توفي 728هـ): أصدر فتاوى صريحة بأن النصيريين أشد كفراً من المشركين ومن اليهود والنصارى، وأنه لا تحل مناكحتهم ولا تؤكل ذبائحهم.
- ابن حجر الهيتمي: وصفهم بأنهم أشد كفراً من اليهود والنصارى.

- الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (مرجع شيعي): الموقف الفقهي الشيعي الكلاسيكي يُخرجهم أيضاً من دائرة الإسلام.

ثالثاً: التحالف مع الاستعمار الفرنسي

الانتداب الفرنسي وسياسة التفتيت (1920–1946)

حين دخل الفرنسيون سوريا عام 1920 بعد معركة ميسلون وهزيمة الحكومة العربية الفيصلية، وجدوا في الأقليات الدينية والإثنية أداةً مثالية لتطبيق مبدأ 'فرّق تسُد' الاستعماري الكلاسيكي.

سياسة التفتيت الإداري

قسّم الفرنسيون سوريا إلى دويلات طائفية وعرقية:

- دولة دمشق
- دولة حلب
- دولة العلويين (1920–1936) في جبال اللاذقية
- دولة جبل الدروز
- متصرفية الإسكندرونة (أهديت لتركيا لاحقاً)

كان الهدف الفرنسي الصريح تكريس التعدد الطائفي لمنع قيام دولة عربية موحدة قادرة على مقاومة الوجود الفرنسي، ووجد النصيريون في هذا المشروع الاستعماري فرصة تاريخية للخروج من هامش التاريخ إلى مركزه.

التعاون العقدي والسياسي

تعاون زعماء النصيريين مع الإدارة الفرنسية بصورة استثنائية. في عام 1936، وحين كانت تجري مفاوضات الاستقلال السوري، أرسل ستة من زعماء النصيريين رسالة إلى المفوض السامي الفرنسي ليون بلوم يطالبون فيها صراحةً بإبقاء الانتداب الفرنسي وعدم ضم منطقتهم إلى سوريا الموحدة.

ومن الموقّعين على تلك الرسالة المشينة رجل اسمه سليمان الأسد، جد حافظ الأسد مما يكشف جذور الموقف الأسدي من الوطن والمواطنة.

رابعاً: التمكين العسكري الفرنسي وما تلاه

قوات الشرق الخاصة: المشتل العسكري

أنشأ الفرنسيون قوات الشرق الخاصة، لتكون الذراع العسكرية للانتداب، واعتمدوا سياسة ممنهجة في تجنيد الأقليات لتحقيق هدفين:

- توفير قوة موالية لهم لا تتماهى مع المشروع الوطني العروبي
- زرع بذور الصراع الطائفي الذي يضمن استمرار الحاجة إلى الوصاية الفرنسية

شكّل النصيريون والدروز والمسيحيون غالبية هذه القوات، في حين اعتبر أبناء المدن السنية الخدمة في جيش الاحتلال مهانة وطنية وعاراً قومياً.
كان هذا القرار العفوي، في ظاهره الأخلاقي ذا ثمن استراتيجي باهظ جداً دفعه السوريون لاحقاً بدمائهم.

الانتقال إلى الجيش الوطني السوري

حين نال السوريون استقلالهم عام 1946 بعد الجلاء الفرنسي، ورث الجيش السوري الوليد هيكل قوات الشرق الخاصة بضباطه وبنيته الطائفية.
كان الضباط النصيريون قد راكموا خلال ربع قرن من الخدمة الفرنسية: خبرة عسكرية واسعة، وشبكة علاقات وولاءات داخل المؤسسة العسكرية، وثقافة مؤسسية تُقدّم الولاء الطائفي على الولاء الوطني.
وجد النصيريون في حزب البعث العربي الاشتراكي، رغم علمانيته العروبية الاسمية، وعاءً سياسياً مثالياً.
أتاح لهم البعث التغطية العلمانية القومية وقدّم أيديولوجيا تُقصي الهوية الإسلامية من المشهد السياسي، وهو بالضبط ما يحتاجه من يريد الحكم باسم الأمة العربية لا باسم الإسلام.

خامساً: صعود حافظ الأسد ومنهجية الاستئصال

مسار الصعود (1963–1970)

انقلاب 8 مارس 1963

وصل البعثيون إلى السلطة في دمشق، وكان في صفوفهم حافظ الأسد ضابطاً طياراً في الثلاثينيات من عمره. بدأت على الفور سياسة تطهير الجيش من الضباط غير البعثيين ومن الكفاءات السنية التي رُئي فيها خطر مستقبلي.

انقلاب 1966

نفّذ الجناح العسكري البعثي بقيادة صلاح جديد وحافظ الأسد، انقلاباً على القيادة التاريخية للبعث (ميشيل عفلق وصلاح البيطار)، وكرّس هيمنة العسكريين على السياسيين، والريف المتطرف على المدينة المعتدلة، والطائفة على الحزب.

حركة التصحيح — نوفمبر 1970

أطاح حافظ الأسد بصلاح جديد، حليفه البعثي الأول في انقلاب أبيض، واعتقله مدى الحياة حتى مات في السجن عام 1993. أثبت الأسد منذ البداية أنه لا يعرف شركاء، بل يعرف أدوات تُستخدم ثم تُرمى.

منهجية السيطرة الشاملة

التداخل الأمني — أربعة أجهزة متنافسة

- المخابرات العامة

- مخابرات الجيش (الاستخبارات العسكرية)
- الأمن السياسي
- الأمن الداخلي

كان الهدف من التعدد إحداث توازن رعب داخلي يمنع أي جهاز من الانقلاب، ويجعل كل مسؤول أمني يعلم أنه تحت مجهر منافسيه.

الترقية بالطائفة لا بالكفاءة

وثّق الباحث حنا بطاطو وغيره أن نسبة الضباط النصيريين في الرتب العليا ارتفعت من أقل من 20% قبل 1963 إلى ما يزيد على 70% في منتصف السبعينيات، وهو تمييز طائفي ممنهج لا سابق له في تاريخ الدول العصرية.

سادساً: محاربة الإسلام بمنهجية الاستئصال

الإطار الأيديولوجي للمعركة

لم يكن عداء النظام للإسلام مجرد توجه علماني دفاعي كما يصوّره المناصرون الغربيون، بل كان استئصالاً وجودياً ممنهجاً لكل تعبير إسلامي يمكن أن يُشكّل بديلاً أو منافساً للسلطة.

المؤسسة الدينية الرسمية

أُخضع الأزهر السوري والمؤسسة الدينية الرسمية لسيطرة الأجهزة الأمنية، وأصبح العلماء موظفين في خدمة النظام لا في خدمة الدين. كان خطيب الجمعة يتلقى نصوص خطبه أحياناً من الأجهزة الأمنية.

تجريم التعليم الديني المستقل

تجريم أي تعليم قرآني خارج المؤسسة الرسمية الخاضعة للدولة، ومراقبة المساجد بعيون أمنية في كل صلاة جمعة. ونُفّذت عمليات اختراق ممنهجة للتنظيمات الإسلامية، وزُرعت مخبرون وعملاء في صفوفها، ودُفع بعضها إلى أعمال تفجيرية عشوائية لتشويه صورتها وتبرير القمع.

سابعاً: قانون العار 1980 وجرائم الاستئصال

قانون رقم 49 لعام 1980: قانون الإعدام الجماعي

في يوليو 1980، وعلى خلفية الصراع المسلح مع جماعة الإخوان المسلمين السوريين، أصدر حافظ الأسد المرسوم التشريعي رقم 49 الذي يُعدّ وثيقة إجرامية فريدة في تاريخ التشريع العالمي:

نص القانون: يُعاقَب بالإعدام كل من ثبت انتماؤه إلى تنظيم الإخوان المسلمين، ويُعامَل الانتماء التنظيمي معاملة الجريمة الكبرى.

التطبيق الفوري

بعد ساعات من صدور القانون، توجّهت سرايا الدفاع بقيادة رفعت الأسد إلى سجن تدمر وأعدمت في ليلة واحدة ما يقارب من 1000 سجين كانوا يقضون أحكاماً سابقة. أُعدم هؤلاء دون محاكمة، دون توجيه تهم، دون إخطار ذويهم، مجرد رصاص جماعي في زنازين السجن.

مجزرة سجن تدمر: الإعدام الجماعي تحت الصحراء

يقع سجن تدمر في قلب البادية السورية، وكان يُسمى 'مملكة الموت' من قبل السجناء أنفسهم الذين عاشوا ليحكوا. وصف الناجون:

- زنازين بالغة الضيق واكتظاظ مفرط
- تعذيباً منهجياً يومياً بالكهرباء والإغراق والإيهام بالإعدام
- إذلال يومي ممنهج وحرمان من النوم
- مذبحة يونيو 1980: إطلاق نار عشوائي وقنابل يدوية داخل الزنازين، ومئات القتلى في يوم واحد

ثامناً: مجزرة حماه 1982 — أم الجرائم

السياق والمقدمات

شكّلت حماه قلعة المقاومة الإسلامية والوطنية ضد النظام الأسدي. في فبراير 1982، نفّذ الإخوان المسلمون انتفاضة مسلحة في المدينة، رأى فيها الأسد فرصته التاريخية للحسم النهائي.

الهجوم على حماه

الحصار الشامل

أحاط الجيش بحماه إحاطة كاملة وقطع الاتصالات والماء والكهرباء، ومنع دخول أي صحفي أو مراقب دولي.

القصف والإبادة

قصف المدفعية الثقيلة وصواريخ الغراد أحياء المدينة القديمة على رؤوس ساكنيها. القوات المشاركة:

- سرايا الدفاع بقيادة رفعت الأسد
- الفرقة الثالثة المدرعة
- وحدات من الحرس الجمهوري
- مجموعات أمنية متعددة

الضحايا والأرقام: تتراوح التقديرات بين 30,000 و40,000 قتيل مدني من السكان لا من المقاتلين، وتشير بعض الروايات المعتمدة إلى أن الرقم 30000، ومئات الآلاف من المهجّرين الداخليين.

أزال النظام مناطق بأكملها بالجرافات، وبنى فوقها مشاريع سكنية ومتنزهات، في محاولة لطمس الجريمة جغرافياً كما طمسها إعلامياً.

تاسعاً: جرائم النظام في لبنان

قتل الفلسطينيين: مجازر متعددة

مجزرة تل الزعتر 1976

حاصر الجيش السوري والقوات الموالية له مخيم تل الزعتر الفلسطيني في بيروت الشرقية لأشهر طويلة، وانتهى الحصار بسقوط المخيم وارتكاب مجزرة أودت بحياة ما بين 1500 و3000 فلسطيني.

حرب المخيمات (1985–1988)

دعم النظام السوري ونفّذ عبر وكلائه عمليات متعددة ضد الفصائل الفلسطينية، بما في ذلك حرب المخيمات التي شنّتها حركة أمل بتشجيع سوري ضد المخيمات الفلسطينية في بيروت وصيدا.

التمكين لحزب الله وإيران في لبنان

بعد الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982، وبالتنسيق مع الحرس الثوري الإيراني، سهّل النظام السوري تأسيس حزب الله وتمريره على الأراضي السورية وتسليحه. لم يكن ذلك حباً في المقاومة، بل كان استثماراً استراتيجياً: حزب الله أداة ضغط على إسرائيل وورقة تفاوض ضد لبنان.

الاغتيالات الممنهجة

- كمال جنبلاط (1977)
- بشير الجميّل (1982)
- رينيه معوض (1989)
- رفيق الحريري (2005) — أضخم عملية اغتيال سياسي في تاريخ المنطقة

عاشراً: سجن صيدنايا — مسلخ بشرية

توصيف منظمة العفو الدولية

وصفت منظمة العفو الدولية في تقريرها الموثّق عام 2017 سجن صيدنايا شمال دمشق بـ'المسلخة البشرية' وهو وصف لم تستخدمه المنظمة لأي سجن آخر في العالم.

الأرقام الموثقة

- ما بين 5,000 و13,000 شخص أُعدموا في السجن بين 2011 و2015 وحدها
- إعدامات جماعية أسبوعية بالشنق ليلاً، جماعات بين 20 و50 شخصاً
- دون محاكمة ودون إخطار الأسر

ظروف الاحتجاز

- اكتظاظ وحشي يفوق الطاقة الاستيعابية بعشر مرات
- حرمان متعمد من الطعام بهدف القتل البطيء
- تعذيب منهجي يتضمن الضرب حتى الموت
- أمراض معدية تنتشر دون رعاية طبية
- مقابر جماعية بعشرات الآلاف من الجثث

الحادي عشر: التوريث الأسدي والاستمرارية الإجرامية

باسل الأسد: الوريث الأول

رسم حافظ الأسد خارطة التوريث منذ مبكر، وانتخب لها نجله الأكبر باسل الأسد (1962–1994)، الذي أُعدّ إعداداً متكاملاً للخلافة. لكن موت باسل في حادثة سيارة على طريق مطار دمشق عام 1994 أربكت مخطط التوريث.

بشار الأسد: الوريث المتردد

كان بشار (مواليد 1965) يدرس طب العيون في لندن حين استُدعي بعد وفاة أخيه. حين توفي حافظ الأسد في يونيو 2000، جرى التوريث باسم 'الانتخاب' الشعبي الاستفتائي الذي حصل فيه بشار على 97.29% من الأصوات، رقم يُعلن عن نفسه.

ربيع دمشق وخريفه

في السنوات الأولى لحكم بشار، انفتح هامش محدود للنقاش العام. ما إن بدأت هذه المنتديات تتجرأ على النقد الجوهري حتى أُغلقت وزُجّ بناشطيها في السجون. كان الربيع قصيراً كأنه لم يكن.

وقوف الأسد مع إيران ضد العراق

خلال الحرب العراقية الإيرانية (1980–1988)، انحاز حافظ الأسد بصورة شبه حصرية إلى الجانب الإيراني:

- أغلق خط أنابيب النفط العراقي عبر سوريا مما حرم العراق من دخل نفطي كبير
- سمح بنقل الأسلحة الإيرانية عبر سوريا
- قدّم معلومات استخباراتية لإيران

المشاركة العسكرية في حرب الخليج 1991

في مشهد متناقض، انضم حافظ الأسد إلى التحالف الأمريكي لتحرير الكويت وأرسل قوات سورية (نحو 14,500 جندي) للمشاركة تحت القيادة الأمريكية ضد العراق. الثمن: اعتراف دولي بحكمه، ورفع جزئي للعزلة، وإطلاق يد سوريا في لبنان.

الثاني عشر: بشار الأسد والمجازر 2011–2024

شرارة الثورة ومسار التصعيد

في مارس 2011، وفي سياق موجة الثورات العربية، انطلقت في درعا شرارة الاحتجاجات بعد اعتقال أطفال وتعذيبهم بسبب كتابتهم شعارات على الجدران. وصف بشار في خطاباته المحتجين بـ 'المؤامرة الخارجية' و'المندسّين' و'الجراثيم' و'الأوباء'، مفردات الإبادة لا مفردات السياسة.

مسار التصعيد الإجرامي

2011 — البداية الدامية

اعتقال جماعي وتعذيب وإطلاق نار على متظاهرين سلميين. آلاف المعتقلين في الأشهر الأولى.

2012–2013 — الحرب الشاملة

استخدام المدفعية الثقيلة والطائرات الحربية لقصف الأحياء السكنية. حمص حُوصرت وقُصفت لأشهر. الغوطة الشرقية حوصرت وجوّعت.

2013 — الهجوم الكيماوي في الغوطة

في 21 أغسطس 2013، ضربت صواريخ محملة بغاز السارين مناطق سكنية في الغوطة الشرقية ليلاً، مما أسفر عن مقتل ما بين 1,400 و1,700 مدني نائم، معظمهم أطفال ونساء. وثّق المحققون الدوليون مسؤولية النظام عن هذا الهجوم الكيماوي.

صور قيصر — 2014

سرّب مصوّر شرطي سوري انشق عن النظام أكثر من 53,000 صورة لجثث معتقلين عُذّبوا حتى الموت في سجون النظام. وثّق محامو الجرائم الدولية أن هذه الصور تمثل أدلة دامغة على جرائم إبادة.

2016 — سقوط حلب

حصار حلب الشرقية والقصف المشترك الروسي السوري حتى سقوطها. أكثر من 300,000 نازح في موجة نزوح واحدة.

2019–2020 — إدلب

عمليات عسكرية واسعة أفضت إلى نزوح أكثر من مليون شخص في أشهر قليلة في أبرد فصل شتوي.

الأرقام الإجمالية للكارثة السورية

- أكثر من 500,000 قتيل (تقديرات مؤسسات حقوق الإنسان الدولية)
- نحو 6 ملايين لاجئ خارج البلاد
- أكثر من 6 ملايين نازح داخلي
- أكثر من 150,000 حالة اختفاء قسري موثقة
- تدمير أكثر من 30% من البنية التحتية السورية

الثالث عشر: إمبراطورية المخدرات والمافيا

الكبتاغون: تجارة موت منظّمة

تحولت سوريا في عهد بشار إلى أكبر دولة منتجة ومصدّرة للكبتاغون (فينيثيللين، منبّه اصطناعي قوي) في العالم. هذا موثق بتقارير أمريكية وأوروبية وخليجية:

- صادرات الكبتاغون السورية تجاوزت 5 مليارات دولار سنوياً، تفوق إجمالي الصادرات الشرعية السورية
- الأسواق الرئيسية: السعودية ودول الخليج ومصر والأردن وأوروبا
- تورط ماهر الأسد (الأخ الأصغر لبشار وقائد الفرقة الرابعة المدرعة) في الإشراف المباشر
- تحوّل الفرقة الرابعة من جيش نظامي إلى حارس مسلح لشبكة مخدرات

شبكات التهريب والمافيا الدولية

تمتد شبكات التهريب عبر لبنان (بالتنسيق مع حزب الله) والعراق (عبر الميليشيات الشيعية الإيرانية) والأردن (شبكات عشائرية فاسدة) ووصولاً إلى أوروبا عبر تنسيق مع شبكات مافيا دولية. تشير تقارير إلى علاقات نظام الأسد مع شبكات إجرامية روسية وإيرانية في شراكة تستغل البنية اللوجستية للدولة السورية.

الرابع عشر: العلويون والنظام، علاقة الشريك والجريمة

مظلومية حقيقية استُغلت أيما استغلال

يستلزم الإنصاف الموضوعي التمييز بين مستويين متداخلين:

أولاً: المظلومية التاريخية الحقيقية

عانى النصيريون/العلويون تاريخياً من تمييز اجتماعي واقتصادي في ظل الدولة والنخب الحضرية الإقطاعية. وهذه مظلومية موثقة ينبغي الاعتراف بها. لكن المظلومية التاريخية لا تُبرر الجريمة، ولا تُعطي صكّ الغفران للاحتلال الطائفي.

ثانياً: الشراكة الفاعلة مع الإجرام

تجاوز النظام الأسدي الاستعانة الطائفية الانتهازية إلى تحويل الطائفة إلى أداة جريمة ممنهجة. وقف الجزء الأكبر من المجتمع العلوي مع النظام لأسباب متعددة:

- الخوف الحقيقي: رسّخ النظام لدى العلويين العاديين قناعة أن سقوطه يعني مذابح طائفية
- الامتيازات الفعلية: الوظائف الحكومية والعسكرية والفرص الاقتصادية التي أوجدت مصلحة مادية في استمرار النظام
- الشبيحة: مليشيات عشائرية علوية ارتكبت مجازر وعمليات نهب ممنهجة في المناطق السنية
- وحدة الدفاع الوطني: التحقت مجموعات علوية واسعة بهذه المليشيات وارتكبت جرائم موثقة

السيطرة على مقدرات الدولة

سيطر النصيريون بصورة ممنهجة على:

- قيادة الجيش والمخابرات والحرس الجمهوري
- المناصب الوزارية والقيادية في الدولة
- القطاعات الاقتصادية الكبرى والتجارة الخارجية
- وسائل الإعلام الرسمية والمؤسسات التربوية
- العقارات والمشاريع الكبرى في المدن الرئيسية

الخامس عشر: ما بعد السقوط لعبة الضحية الجديدة

سقوط النظام في ديسمبر 2024

في ديسمبر 2024، وبسرعة مذهلة أذهلت المراقبين، انهار نظام الأسد أمام هجوم قوات المعارضة. فرّ بشار الأسد من دمشق واتجه إلى موسكو طالباً اللجوء.

الظهور بمظهر الضحية

فور سقوط النظام، بدأت حملة ممنهجة لاستعادة الأجندة:

- **خطاب المظلومية المفتعل:** محاولة محو التمييز بين الضحايا العلويين الحقيقيين والمشاركين الفاعلين في الجهاز الإجرامي
- **إثارة الفوضى والقلاقل:** عمليات تسليح بقايا الموالين وأعمال تخريب تستهدف زعزعة الدولة السورية الجديدة
- **التشبيك الدولي**: تصوير أي محاسبة قانونية على أنها 'اضطهاد طائفي' لاستمالة الرأي العام الغربي
- **التلاعب بالمجتمع الدولي**: استغلال المخاوف الإنسانية لخلق ضغوط تمنع الحكومة السورية الجديدة من المحاسبة القانونية

بقايا النظام داخل سوريا، الجمر تحت الرماد

سقوط النظام في ديسمبر 2024 لم يعنِ اختفاء أدواته، بل أعاد تموضعها. ثمة ثلاث مسارات متوازية لبقايا النظام داخل الأراضي السورية تستحق الرصد والتحليل:

أولاً: التمرد المسلح في الساحل

في 6 مارس 2025، نفّذت فلول النظام هجمات منسقة على دوريات الأمن في محافظتي اللاذقية وطرطوس، معقل النصيريين التاريخي، مستهدفةً إعلان الساحل منطقة خارج سيطرة الدولة الجديدة. أسفرت العمليات عن أكثر من 700 قتيل من الجانبين قبل أن تُحسم لصالح الجيش السوري في أقل من 24 ساعة. وكشفت التحقيقات عن تنسيق مباشر بين قيادة الفلول وخلايا حزب الله عبر لبنان، وعن تمويل خارجي منظّم لإدامة زعزعة الاستقرار.

ثانياً: التوظيف من قِبل أطراف أخرى

رصدت تقارير موثّقة توظيف قسد لعناصر من فلول النظام السابق في مناطق نفوذها شمال شرق سوريا، في ما يشبه إعادة التدوير الأمني لخدمة أجندات الانفصال.

كما رصدت الاستخبارات اللبنانية نحو 200 ضابط سوري سابق موزّعين في مناطق حساسة داخل لبنان، تسعى دمشق إلى تسليمهم في إطار اتفاقية ثنائية لم تُبرم بعد.

ثالثاً: الاختراق المؤسسي

أعلن وزير الداخلية السوري أنس خطاب عن ضم عناصر من النظام السابق لم ينشقوا رسمياً ضمن إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية، وهي سياسة براغماتية مفهومة من حيث الحاجة إلى الكفاءات، لكنها تحمل خطر إعادة إنتاج الثقافة الأمنية القديمة داخل المؤسسة الجديدة.

الخلاصة: بقايا النظام ليست ظاهرة هامشية في طور الاضمحلال، بل هي مشروع إعاقة منظّم يستهدف الدولة السورية الجديدة من الداخل والخارج في آنٍ واحد، ويستلزم يقظةً أمنية دائمة دون أن يتحول إلى ذريعة للانتقام الجماعي من مجتمع بأكمله.

السادس عشر: الخلاصة الاستراتيجية — الدروس والاستخلاصات

ما كشفه النموذج السوري

- الطائفية السياسية الممنهجة ليست ظاهرة عفوية بل مشروع سياسي محكم يُنفَّذ بأدوات الدولة والاستخبارات والقوة والاقتصاد.
- المؤسسة العسكرية في الدول الهشّة هي بوابة السلطة؛ من يسيطر عليها يحكم لعقود دون شرعية شعبية.

- الاستعمار الغربي لم يغادر سوريا عام 1946، بل غادر بعد أن زرع بنية طائفية في صلب المؤسسة العسكرية.
- التغطية الدولية، من الصمت عن مجزرة حماه إلى التأخر في التحرك إزاء الكيماوي، كانت مكشوفة للمصلحة على حساب الإنسانية.
- المحاسبة القانونية، لا الانتقام الطائفي، هي الطريق الوحيد لبناء سوريا مستقرة.
- اقتصاد الجريمة الموازي ليس ظاهرة عَرَضية بل ركيزة بقاء: النظام الذي يفقد شرعيته الشعبية يعوّض بالتمويل غير المشروع، ومن يريد إسقاطه مستقبلاً يجب أن يبدأ بتجفيف مصادر تمويله لا بمواجهته عسكرياً فحسب.

النظرة المستقبلية

لا مستقبل لسوريا دون:

- محاسبة قانونية دولية لمرتكبي الجرائم بصرف النظر عن انتماءاتهم الطائفية
- حماية حقيقية للمجتمع العلوي من الانتقام الجمعي مع محاسبة فردية للمجرمين
- إعادة بناء المؤسسة العسكرية على أسس وطنية لا طائفية
- لجنة حقيقة ومصالحة موثوقة تُوثّق الجرائم وتعترف بالضحايا من كل الطوائف
- رفض الإفلات من العقاب الذي طالما كان الوقود الحقيقي لتكرار الجريمة في المنطقة
- إعادة بناء المنظومة التعليمية على أسس المواطنة والتاريخ الحقيقي، بعد خمسة عقود من التشويه الممنهج الذي أنتج أجيالاً لا تعرف وطنها بل تعرف زعيمها.

السابع عشر: تحديات المحاسبة — من يعرقلها وكيف وما الأدوات المتاحة

أولاً: المشهد الراهن — بداية لكنها ليست نهاية

في أبريل 2026، نطق قاضي محكمة الجنايات في دمشق باسم المتهم الأول بشار الأسد في مستهل أولى جلسات محاكمات العدالة الانتقالية في سوريا، والمنادى عليه لم يكن في قاعة المحكمة، بل يُرجَّح أنه كان يتابعها من مقر إقامته في موسكو. هذا المشهد يلخّص بدقة شديدة المعادلة الكاملة: محاكمة تاريخية رمزية في دمشق، ومجرم حرب يعيش برفاهية في العاصمة الروسية .

يرى مراقبون أن تأخر بدء المحاكمات يعود إلى تعقيدات تتعلق بجمع الأدلة وبناء الإطار القانوني المناسب، وأن المحاكمات المتسرعة قد تضعف مصداقية العملية برمتها.

هذا صحيح من الناحية الإجرائية، لكنه لا يُفسّر وحده التباطؤ، فثمة عوامل سياسية أعمق تعمل في الخفاء .

ثانياً: من يعرقل المحاسبة؟

١. روسيا: الملاذ الآمن المحمي

بشار الأسد وشقيقه ماهر وجميع المتورطين الكبار في قتل أبناء الشعب السوري يعيشون اليوم أحراراً في روسيا، وهذا يبعث برسالة خطيرة مفادها أن أي ديكتاتور يمكنه ارتكاب المجازر بحق شعبه ثم تأمين ملاذ آمن دون محاكمة .

موسكو لا تُسلّم بشار لأن تسليمه يعني ضمنياً الاعتراف بأن دعمها العسكري المباشر لمجازره كان شراكة في الجريمة. تسليم بشار في المنظور الروسي هو محاكمة بوتين بالوكالة.

٢. العرقلة الداخلية: التباطؤ المؤسسي

رغم تشكيل "الهيئة الوطنية للعدالة الانتقالية والمفقودين" في أغسطس 2025، فإن ثمة حالة من التباطؤ تسم مسار العدالة الانتقالية، في ظل غياب مسارات واضحة وتركّز العملية في يد مجموعة بعينها من القوى .

٣. توظيف خطاب "المحاسبة الانتقائية"

ثمة من يحذّر من أن "المحاسبة الانتقائية التي تُوجَّه نحو طرف واحد ستُقرأ كفعل انتقامي"، مضيفاً أن "أطرافاً متعددة شاركت في الانتهاكات، وإذا لم تكن هناك قدرة حقيقية على محاسبة الجميع ضمن إطار واحد وعادل، فمن الأخطر فتح هذا الملف بشكل جزئي ."

هذا الخطاب في ظاهره منطقي، لكنه في حقيقته أداة تعطيل متقنة: المطالبة بـ"محاسبة الجميع" عندما يكون التحقق منها مستحيلاً هو في الواقع مطالبة بعدم محاسبة أحد.

٤. فخ الأولويات الاقتصادية

ينتظر السوريون نتائج ملموسة على الصعيد الاقتصادي، لا سيما بعد رفع البلاد من قائمة العقوبات، والوعود المتعلقة بقدوم الاستثمارات. وهنا يكمن الفخ: الضغط الاقتصادي الحقيقي على المواطن السوري يجعله يقبل تأجيل المحاسبة مقابل الخبز، وهو بالضبط ما يريده المستفيدون من الإفلات من العقاب .

ثالثاً: الأدوات المتاحة رغم كل العقبات

١. المحاكمة الغيابية كسلاح قانوني محاكمة بشار الأسد ربما لا تفلح في إحضاره للقفص في المدى المنظور، لكن نجاحها يكمن في تحويل ملفه إلى "قنبلة موقوتة" قانونية تلاحقه وحلفاءه أينما كانوا. كل حكم قضائي صادر غيابياً هو ورقة ضغط دبلوماسية تُضيّق عليه دائرة الملاذات الآمنة وتُعقّد علاقات الدول التي تؤويه .

٢. ملف صور قيصر والأدلة الرقمية أكثر من 53,000 صورة موثّقة للضحايا، إضافة إلى وثائق مسرّبة من داخل الأجهزة الأمنية، تشكّل أرشيفاً استثنائياً لم يتوفر لأي ملاحقة قضائية دولية من قبل. هذه الأدلة لا تتقادم ولا تُحرق.

٣. المحاكم الأوروبية: المسار الموازي بدأت محاكم ألمانية وفرنسية وسويدية ملاحقة ضباط من النظام السوري اللاجئين في أراضيها، وصدرت أحكام إدانة فعلية. هذا المسار الموازي يُثبت أن العدالة قابلة للتطبيق حتى حين تعجز الدولة السورية نفسها.

٤ .**الضغط على روسيا عبر المصالح لا عبر المبادئ** روسيا لن تُسلّم بشار استجابةً لنداءات أخلاقية، لكنها قد تفعل مقابل ثمن سياسي واقتصادي مناسب. الضغط عليها يجب أن يكون عبر ربط التطبيع الاقتصادي مع الحكومة السورية الجديدة بالتعاون في ملف المحاسبة.

المحاسبة ليست رفاهية أخلاقية بل ضرورة استراتيجية: كل مجرم ينجو من العقاب هو بذرة لمجرم مستقبلي في سوريا أو في غيرها. دمشق تنتقل من كونها مركزاً للسلطة خلال سنوات النزاع إلى ساحة لمحاولة إعادة بناء الثقة بالمؤسسات،

ما جرى في سوريا لم يكن قدراً ولا حتمية تاريخية — كان خياراً سياسياً اتخذه أشخاص بأسمائهم وصفاتهم وتواريخ جرائمهم. وما يمكن أن يُبنى في سوريا ليس قدراً أيضاً، هو خيار يتخذه السوريون اليوم بين العدالة والنسيان، وبين المستقبل والدوامة.

والثقة لن تُبنى بالنسيان بل بالعدالة.

المراجع والمصادر

1. بطاطو، حنا. *سوريا: الفلاحون، ذوو الوجاهة في الريف حديثاً والسياسة*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1999.

2. Van Dam, Nikolaos. *The Struggle for Power in Syria: Politics and Society under Asad and the Ba'th Party*, I.B. Tauris, London, 4th ed., 2011.

3. Seale, Patrick. *Asad: The Struggle for the Middle East*, University of California Press, Berkeley, 1995.

4. منظمة العفو الدولية. *تقرير المسلخة البشرية: عمليات الإعدام الجماعي في سجن صيدنايا*، فبراير 2017.

5. هيومن رايتس ووتش. *تقارير سوريا السنوية 2011–2024*، نيويورك.

6. لجنة التحقيق الدولية المستقلة بشأن سوريا، *تقارير مجلس حقوق الإنسان الأممي*، جنيف، 2012–2024.

7. Friedman, Thomas L. *From Beirut to Jerusalem*, Farrar, Straus and Giroux, New York, 1989.

8. Pipes, Daniel. *Greater Syria: The History of an Ambition*, Oxford University Press, 1990.

9. Leverett, Flynt. *Inheriting Syria: Bashar's Trial by Fire*, Brookings Institution Press, Washington D.C., 2005.

10. مركز عدالة للمحاسبة والتوثيق. *تقرير صور قيصر: توثيق جرائم التعذيب حتى الموت في سجون النظام السوري*، 2014.

11. Lund, Aron. *Syria's Salafi Insurgents: The Rise of the Syrian Islamic Front*, Swedish Institute of International Affairs, 2013.

12. كارنيغي الشرق الأوسط. *ملف الكبتاغون السوري: اقتصاد المخدرات وشبكات النظام*، بيروت، 2021–2023.
١٣. مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان، بيان المتحدث ثمين الخيطان حول محاكمات العدالة الانتقالية في سوريا، المؤتمر الصحفي لمكتب الأمم المتحدة، جنيف، أبريل 2026.
١٤. اللجنة الدولية المستقلة للتحقيق بشأن سوريا، تقرير مجلس حقوق الإنسان الأممي، جنيف، مارس 2026.
١٥. هيومن رايتس ووتش، هيئة العدالة الانتقالية السورية: فرصة ضائعة لعدالة تُركز على الضحايا، نيويورك، مايو 2025.
١٦. المركز السوري للعدالة والمساءلة وسوريون من أجل الحقيقة والعدالة والعدالة من أجل الحياة، الانتقال في سوريا: قراءة في المراسيم والقرارات الصادرة لعام 2025، أبريل 2026.
١٧. الشبكة السورية لحقوق الإنسان، عدالة انتقالية في سوريا: ضرورة وطنية لمنع الانتقام وضمان الاستقرار ما بعد النزاع، مايو 2025.
١٨. وكالة فرانس برس، سوريا: بدء محاكمة بشار الأسد وشقيقه ماهر غيابياً في دمشق، 26 أبريل 2026.
١٩. الجزيرة نت، هل يمكن استعادة بشار الأسد من موسكو؟ تحليل قانوني وسياسي، 26 أبريل 2026.
٢٠. العربية نت، بدء محاكمة الرئيس السوري المخلوع بشار الأسد غيابياً بدمشق، 26 أبريل 2026.
٢١. الهيئة الوطنية للعدالة الانتقالية السورية، المرسوم الرئاسي رقم 20 لعام 2025 بتشكيل الهيئة الوطنية للعدالة الانتقالية، دمشق، 17 مايو 2025.
٢٢. الجزيرة نت، أين اختفى ضباط الأسد؟ رصد لمسارات الفلول بعد سقوط النظام، يناير 2025.
٢٣. العربية نت، أكثر من 700 قتيل من قوات الأمن وفلول الأسد بمعارك الساحل السوري، مارس 2025.
٢٤. صحيفة الاستقلال، فلول الأسد تنسق مع خلايا حزب الله — هكذا تعمل لضرب وحدة سوريا وتخريب الساحل، 2025.
٢٥. يورونيوز عربي، وزير الداخلية السوري: ضم ضباط سابقين لم ينشقوا عن النظام البائد في إطار إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية، يونيو 2025.
٢٦. موقع عكس السير، لبنان يتحرك لتسليم ضباط سوريين سابقين دخلوا أراضيه بعد سقوط نظام الأسد، مايو 2026.
٢٧. TRT عربي، ملاذ الفلول — كيف أعادت قسد تدوير ضباط وجنود النظام المخلوع، ديسمبر 2025.